(١٥) عبد الله بن المبارك[١]

ذكر الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله:

كان رحمه الله زينةَ زمانه، وحِلية أوانه، إمامًا في الشريعة والطريقة، ذا الجهادَيْنِ[٢] في الحقيقة.

وكان يُسمّى سلطان العلماء، وما كان له نظيرٌ في عهده في العلم والشجاعة.

وكان من مُحتشمي أصحاب الطريقة، ومن محترمي أرباب الشريعة، وله في جميع الفنون أحوالٌ مرضية.

وأدركَ جمعًا كثيرًا من كبار المشايخ، وكان مُداريًا مع جميع الخلق، مَقبولاً عندهم.

وله في العلوم تصانيفُ مَشهورة[٣]، وبين المشايخ كراماتٌ مذكورة، حتى

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٢، طبقات خليفة ٣٢٣، تاريخ خليفة ١٤٦، التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٢١٢، التاريخ الصغير له ٢/ ٢٠٥، المعارف ٥١١، الجرح والتعديل ٥/ ١٧٩، الثقات لابن حبان ٧/ ٧، حلية الأولياء ٨/ ١٦٢، تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، ترتيب المدارك ١/ ٣٠٠، أنساب السمعاني ٤/ ٢٥١، صفة الصفوة ٤/ ١٣٤، تاريخ دمشق ٣٨/ ٣٠١، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٤٧٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٨٥، وفيات الأعيان ٣/ ٣٢، مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ١٣، تهذيب الكمال ١٦/ ٥، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٦ (١١٢)، تذكرة الحفاظ ٢٧٤، غاية النهاية ١/ ٤٤٦، الوافي بالوفيات ١٧/ ٤١٩، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٨٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٩، الكواكب الدرية ١/ ٣٥٠، شذرات الذهب ١/ ٢٩٥.

(٢) الجهادان: الجهاد الأكبر (جهاد النفس)، والجهاد الأصغر (قتال أهل الشرك والضلال).

(٣) ذكر صاحب هدية العارفين ١/ ٤٣٨ من كتبه: الأربعين في الحديث، تفسير القرآن، الدقائق في الرقائق، رفاع الفتاوى، كتاب البر والصلة، كتاب التاريخ، كتاب الجهاد، كتاب الزهد، كتاب السنن في الفقه.

قيل: كان يجيءُ يومًا إلى سفيان الثوري رحمه الله، فقال سفيان: تعالَ يا رجلَ المشرق. وكان الفضيلُ حاضرًا فقال: والمغربِ وما بينهما أيضًا.

حكي أنَّ ابتداءَ سبب توبته أنه كان عاشقًا على جاريةٍ، وهي قد سلبَتْه العقل والقرار إلى أن جاءَ إلى تحت حائطِ بيتها في ليلةٍ شاتيةٍ باردة، وهي كانت على السطح يُشاهدُها وتُشاهده إلى أن أذَّنَ المؤذن للصُّبح، وفي ظنِّه أنه للعشاء، فلمّا انكشفَ الفجر، علمَ أنّه لصلاة الصبح، وأنه كان مُستغرقًا في مشاهدة معشوقته الجارية، فتنبَّه وانتبه، وندمَ على ما فعل، وقال في نفسه: أما تَستحيي يا بن المُبارك من أن أحييتَ ليلةً إلى الصباح في هوى النفسِ؟ وكنتَ قائمًا واقفًا على الأقدام لا تدري الرأسَ من القدم! وإن أطالَ الإمامُ نوبةً في الصلاة يحصلُ لك ضجرٌ وسآمةٌ، ولا تقدرُ أن تقوم لله في عبادته لحظةً، أهكذا يفعلُ الكرام؟ أهكذا تُحفظ الذمام[١]؟ وحصل في قلبه قلقٌ واضطراب وحرقة، وتاب من ساعتِهِ، واشتغلَ بطلب العلم، وترقّى ووصلَ إلى درجةٍ من الكمال حتّى رأته أمُّه نائمًا في البستان، وعنده حيّةٌ عظيمة، أمسكَتْ بفمها ورقةَ ريحانٍ تروِّحُهُ بها.

ثم رحلَ من مرو إلى بغداد، وسكنَ بها مدةً، وكان يصحبُ المشايخ، ثم سافر إلى مكّةَ شرّفها الله تعالى، وسكن هناك ما شاء الله تعالى، ثم رجعَ وتوجَّهَ إلى مرو، وهي من مدن خراسان، واعتقدَهُ الخلائقُ فيها، واشتغل بإفادة الناس والدرس، وكان أهلُ مرو فريقين: بعضُهم على طريقةِ أهلِ الحديث، وهم أصحابُ الشافعي رضي الله عنه، وبعضهم على مذهبِ أهلِ الرأي على مذهبِ أبي حنيفة[٢] رضي الله عنه، وهو عاشَرَ الفريقين بحيث أنَّهما رضيا عنه، وسُمّي رضيَّ الفريقين لغاية موافقته لهما، وكلٌّ من الفريقين يدّعي: أنّه منَّا. وهو بنى في مرو زاويتين: إحداهما لأهلِ الحديث، والأخرى لأهل أرباب الرأي[٣]

---

(١) في (أ): أهكذا تخفر الذمام.

(٢) في (أ): على طريقة أهل الرأي.

(٣) في (أ): والأخرى لأصحاب الرأي.

ـ أي الشافعية والحنفية ـ ثم ارتحلَ إلى مكّة حرسها الله تعالى، واختار الإقامة بها.

نقل أنه كان يحجُّ عامًا، ويغزو عامًا، ويتّجرُ عامًا، وما يكتسبُ من عامِ تجارتِهِ[1] يُنفقُهُ على المساكين والمحتاجين، وكان يُطعمُهم التمرَ، ويقول: من يأكل تمرةً أُعطيه درهمًا. ثم كان يعدُّ العَجَمَ، ويُوفي بما وعد.

نقل أنه اتّفقَ له مرافقةٌ مع شخصٍ سيِّىء الخلق، فلمّا تفرّقا شرعَ عبدُ الله يبكي، قيل له: ولِمَ تبكي؟ قال: لأنَّ هذا المسكين فارقني، ولم يفارقْ خلقَه، وذهبَ معه.

نقل أنه كان في التقوى إلى حدٍّ أنّه في بعض الأيام كان راكبًا على فرسٍ له، سائرًا في بعض الصحارى يشتغلُ، والفرسُ كان من الجياد، فنزل واشتغلَ بالصلاة، فبين ذلك دخلَ فرسُه في زرعٍ، وأكلَ منه شيئًا، فلمّا فرغَ من الصلاة، ترك الفرسَ لصاحبِ الزرع، وقال: لا يصلحُ لي بعد هذا.

نقل أنه رجعَ من مرو إلى الشام بسببِ قلمٍ لبعضِ الأصحاب قد بقي معه، فأوصله إلى صاحبه.

نقل أنه كان سائرًا في بعض الطُّرق، وكان هناك رجلٌ أعمَى واقفًا على الطريق يَسألُ الناس، قيل له: هذا عبد الله بن المبارك يجيءُ إليك، اسألْ منه ما تشتهي. فلمّا وصلَ إليه عبد الله قال الأعمى: قف يا عبد الله. فوقف، فقال له: ادعُ الله تعالى ليردَّ عليَّ عيني. فأطرق عبدُ الله رأسَه، ودعا، فردَّ اللهُ عليه عينه في الحال.

نقل أنه في عشر ذي الحجَّة خرج إلى الصحراء، وكان له اشتياقٌ عظيم إلى زيارة الكعبة، وما تيسّرتْ له في تلك السنة، فاشتغلَ بأعمال الحجّ هناك، وترك قَلْمَ الأظفار، وحلقَ الشعر، وغيرَ ذلك ممّا يمكنه أن يأتي به من أعمال الحجِّ في ذلك المكان، وكذلك كان مشغولاً بذلك إذِ التَقتْهُ عجوزةٌ مُنحنيةُ الظهر،

---

(١) في (ب): وما يكتسب في حال تجارته.

بيدها عصا، وقالت: يا عبد الله، تَشتهي الحجَّ، فإنك مشغولٌ بأعماله؟ قال: نعم. فقالت العجوزة: بعثوني لأجلك لترافقني وأرافقك إلى عرفات، وأوصلَكَ إليها بتوفيق الله تعالى. قال عبد الله: قد تضيَّقَ الوقتُ، وما بقي إلاّ ثلاثةُ أيام أو أربعةُ أيام، فكيف نصلُ من مرو إلى مكة؟ قالت العجوزة: مَنْ صلَّتْ سُنَّةَ الصبح[١] في ساحل سيحان، والفريضةَ في جيحان، وحين طلعتِ الشمسُ وصلَتْ إلى مرو تصلحُ لترافقها إلى مكة. فذهب معها عبد الله، قال: كنّا نصلُ إلى أنهارٍ عظيمة[٢]، لا يُمكن العبور عليها إلاّ بالسفينة ومثلها، فتقولُ لي العجوزةُ: اغمضْ عينيك. وعند الفتح أكونُ في الناحية الأخرى من النهر حتى انتهينا إلى عرفات، وحصل لنا الوقوفُ، وتمَّ الحجُّ، وأدّينا المناسك من الطواف والسعي، وقضينا العمرةَ أيضًا، قالت العجوزة: لي هنا ابنٌ مشغولٌ بالرياضة في مغارةٍ، تعالَ نمش إليه لنزوره. فلمّا وصلنا إليه، رأيناه أصفر لونُهُ، وصار ضعيفًا مهزولاً نحيفًا، فكان النورُ يتقاطرُ من وجهه، فحين رأى أمَّه استبشرَ وشرع يقبِّلُ يديها ورجليها، وقال: أعلمُ أنك ما جئتني اختيارًا، إلاّ أنّ الله تعالى بعثَك، والحال أني قد انقضى عمري، وما بقي منه إلا قليلٌ، اصطبري وقفي عندي لتجهّزيني. قالت لعبد الله: توقّفْ عندي إلى أن نفرغَ من دفنه. فتوفّي ابنُها إلى رحمة الله تعالى، وجهّزوه ودفنوه، ثم قالت العجوزة: إني لا أفارقُ قبرَه، وأنت يا عبدَ الله في الخير والسلامة، فإن اتّفقَ لكَ المجيءُ إلى مكة في السنة القابلة، ووجدتني قد انتقلتُ إلى رحمة الله تعالى، اذكرني بالدعاء. والله أعلم.

نقل أنه قال: قد حججتُ في بعض الأعوام، وأتممتُ المناسكَ، وكنت قاعدًا في الحرم الشريف إذ غلبني النوم، فرأيت فيما يرى النائم أنّه نزلَ من السماء مَلَكانِ، وسأل أحدُهما من الآخر: كم من الناس اجتمع في هذه السنة؟ قال: ستُّ مئة ألف. قال: فحجُّ كم منهم مقبول؟ قال: ليس حجُّ أحدٍ منهم

---

(١) في (ب): من صلت صلاة الصبح هو في ساحل.

(٢) في (أ): كنّا إذا وصلنا إلى أنهار عظيمة

مقبولاً. قال عبد الله: لمَّا سمعتُ هذا الكلام حصلَ لي اضطرابٌ وألمٌ عظيم، قلت: هذه الخلائقُ اجتمعوا وتعبوا وجاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق، وقطعوا البوادي، وسعيُهم يصيرُ ضائعًا عند الله! قال: رجلٌ إسكاف في دمشق يُسمّى عليًّا [بن] الموفق[١]، وهو ما حضر الموقف؛ ولكن الله تعالى كتبَ له ثواب حجٍّ كامل، وقَبِلَ حجَّ هذه الخلائق ببركته. فانتبه عبد الله من نومه، وقال: قصدتُ دمشق، إذ ليس منهم أفضلُ من أن ألتقي بذلك الشخص، وأستخبرُ من أعماله، وأعلم أنَّه بأيِّ عملٍ استحوذَ على هذه الدرجة حتى كُتب له حجٌّ، وقُبل ببركته حجُّ ناسٍ كثيرٍ من المسلمين، فبلغتُ دمشق، وانتهيتُ بلا دليلٍ إلى باب دارٍ، وقرعتُه، فطلعَ شخصٌ، فسألتُ اسمَه، فقال: اسمي عليّ [بن] الموفق. قلت: وما عملُك؟ قال: إنّي رجل مشفعٌ، وعملي وصنعتي التَّشفيعُ[٢]. قلتُ: لي معك كلامٌ. وكان هناك مسجدٌ، فدخلناه، وأعلمتُهُ عمّا رأيتُ في المنام، وقلتُ: اسمي عبد الله بن المبارك. فشهق الرجل شهقةً وأُغمي عليه، فلمّا أفاقَ، قلتُ: أخبرني عن هذا الحال. قال: من ثلاثين سنة أقصدُ زيارةَ الكعبة، وتَحصيلَ المناسك، وأهمّني ذلك[٣]، وكنت أجمعُ قليلاً من التشفيع حتى انجمعَ لي ثلاثُ مئة وخمسون درهمًا، وأردتُ الحجَّ في سنتنا هذه، ثم رأيت الدراهم قليلةً، قلتُ: أصبرُ هذه السنة إلى القابلة، عسى أن يحصلَ لي خمسون درهمًا آخر ليصيروا أربع مئة درهم، ثم أُسافرُ إن شاء الله تعالى، وكانت امرأتي حاملةً، واشتمَّت رائحةَ طعام من بعض بيوت الجيران، وتغيَّرَتْ عليها الحال، وطلبَتْ منّي لقمةً من ذلك الطعام، فأتيتُ باب ذلك البيت، وطلبتُ مذقةً من ذلك الطعام، وأعلمتُ الحال، وكانت صاحبةُ البيت امرأةً، فبكت وقالت: لي

---

(١) كذا في الأصول، وهو غير علي بن الموفق الزاهد الورع السخي الذي توفي سنة ٢٨٣هـ انظر ترجمته ومصادرها في طبقات الصوفية للمُناوي (١/ ٦٧٩) ومن نافلة القول إن عبد الله بن المبارك توفي سنة ١٨١.

(٢) التشفيع: إصلاح الأحذية، انظر صفحة ٧٨٨، وفي الترجمة العربية صفحة ٤١١ صنعته الحياكة.

(٣) في (أ): وأتمنّى ذلك.

أولادٌ صغارٌ أيتام، وما أكلوا شيئًا في هذه الأسبوع، فدخلتُ اليومَ في خرابةٍ، فصادفتُ فيها جيفةَ حمار، وأتيت منها بقطعةِ لحم، وهي هذه في القدر بعدُ، وهي علينا حلالٌ، وعليكم حرام. فلمّا سمعتُ الحكايةَ احترقَ قلبي رأفةً بهم وشفقةً عليهم، فلمّا رجعتُ إلى البيت وأخذتُ الدراهمَ المعهودة، وهي ثلاثة مئة وخمسون درهمًا، وأتيت بها إلى المرأةِ، وأعطيتُها إيّاها لتُنفقَ على نفسها وعلى أطفالها، واكتفيت بالبذلِ لوجهِ الله على الحجِّ، وقلت: هذا يقوم لي بعنايةِ اللهِ عن الحجِّ ومقامه. فقال عبد الله: صدقْتَ، وصدق المَلَكُ الرؤيا، وعدل المَلَكُ في الحكم والقضاء، والله أعلمُ بحقائق الأشياء.

نقل أن لعبدِ الله كان مملوكًا، فكاتبه على درهمٍ يؤدّيه إليه في كلِّ يوم، فأخبره شخصٌ: أن هذا المُكَاتَبَ يَنبشُ القبور، ويُحصِّلُ الدرهم الذي يُعطيك من ثمنِ الأكفان. فشقّ ذلك على عبد الله، فتبعه ليلةً خُفيةً منه، فرآه دخلَ بعضَ المقابر، ونبشَ قبرًا، ودخل فيه، فاطّلعَ عليه، فإذا هو مسجدٌ وفيه محرابٌ، واشتغلَ المملوكُ المكاتَبُ فيه بالصلاة والعبادة إلى الصباح في غايةِ التضرُّع والابتهال[1]، وقد تقلَّدَ في عُنقه غلاً ثقيلاً من الحديد، ولمّا رأى عبدُ الله الحالَ، غلبَ عليه البكاء والأنينُ، واختفى هناك إلى أن انقضى شُغل المكاتَبِ، وطلع الفجر، فخرج من ذلك الحفرة، وطمَّ رأسَه، ثم رفع رأسَه إلى السماء، وقال: إلهي، أصبحتُ والسيد المجازيُّ سيطلبُ منّي الدرهم المطلوب المعهود، إلهي وأنت رأسُ المال للمُفلسين، فاعطني من حيث تعلمُ ولا أعلم. فظهر نورٌ وفيه درهمٌ وقعَ بين يديه، فقام عبد الله إليه إذ لم يبقَ اصطبارٌ، واعتنقَ العبدَ المكاتَبَ، وشرع يقبِّلُ رأسَه ووجهه، فاغتمَّ المُكاتَبُ من اطّلاعِ عبد الله على حاله، وقال: إلهي، لمّا افتضحْتُ وهُتك ستري، وانكشف سرّيَ لم يبقَ لي عيشٌ ولا راحةٌ في الدنيا، أسألُكَ بعزّتِكَ أن لا تفتنني؛ بل تقبض روحي في الساعة. وكان بعدُ في المُعانقة مع عبد الله، وفي حضنه، إذ قُبض روحُه، ووقع

(١) في (أ): في غاية التضرع والخشوع.

على الأرض ميتًا، تحيّرَ عبدُ الله رضي الله عنه في شأنه، وبقي متفكّرًا ساعةً، ثم رجعَ، وأخبرَ أصحابَه وإخوانه، فحضروا، وهو تولّى غسلَهُ بنفسه، وصلّى عليه بجماعةٍ من المسلمين، وكفّنه في كساءٍ غليظٍ كان عليه، ورأى عبدُ الله في ليله إبراهيمَ ومحمّدًا عليهما السلام يأتيان راكبَيْنِ على بُراقَيْنِ، فالتقيا بعبد الله بن المبارك، وقالا له: يا عبدَ الله، لِمَ دفنْتَ وليًّا[1] في ذلك الكساء؟!

نقل أنه كان يَمشي في بعض الأيامِ في وقارٍ عظيم، وسكونٍ ومهابة، فاستقبله شابٌّ سكرانُ من أبناء السادات العلوية، وقال له: يا بن الهندي ـ لأن المباركَ كان غلامًا هنديًا ـ أنت تتماشى على تلك الطريقةِ، وأنا من أولادِ الرسول ﷺ، وحالي كما ترى! فقال عبد الله: لأنّي أعملُ بما عملَ به جدُّك ﷺ وأمر ونهى، وأنت لا تعملُ، لا جرمَ أنا على هذا الحال، وأنت على ذلك. فلمّا باتَ عبدُ الله رأى في المنام النبيَّ ﷺ متغيِّرًا عليه، قال: يا رسول الله، ما لي أراك متغيّرًا عليَّ؟ وأيُّ شيءٍ هو جرمي؟ وما ذنبي؟ قال ﷺ: لأنَّك حملتَ الذنبَ على بعض أولادي في جماعةٍ من الناس[2]، ونسبتَ إليه ظاهرًا. فأصبح عبدُ الله، وقصد مقامَ العلويِّ ليعتذرَ منه، والحالُ أنَّ الشابَّ العلويَّ أيضًا رأى النبيَّ ﷺ تلك البارحة، واشتكى لديه من عبد الله، وقال له النبيُّ ﷺ: لو أنت كنتَ كما ينبغي، وعاشرتَ على طريقي، وسلكت محجّتي لما قال عبدُ الله ما قالَ. فأصبح العلويُّ أيضًا، وقصدَ عبد الله ليعتذرَ منه، فالتقيا في الطريق، وتحاكيا ما جرى عليهما، وتاب العلويُّ على يد عبد الله، وهو على يد العلوي ورجعا.

أقول: معاتبة النبي ﷺ مع عبد الله بن المبارك لا شكَّ أنَّها كانت إرشادًا له، وإصلاحًا له، وإزالةً لما توهَّمَ فيه من العُجب المُردي، ومن التحقير لبعضِ أولاد النبيِّ عليه السلام، وتهذيبًا لأخلاقه، وتأديبًا، وسببًا لصلاح ذلك العلويِّ المُجاهر بالفسق، المخالف لسيرةِ أسلافه الكرام، والله أعلم.

---

(١) في (ب): دفنت وليّنا.

(٢) في (أ): وفي ملاءٍ من الناس.

نقل أن سهلَ بن عبد الله المروزي[١] رضي الله عنه كان يتردَّدُ إلى مجلسِ درسِ عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، فخرج يومًا من المجلسِ، وقال: لا أرجعُ إلى مجلسِ درسِك أبدًا. قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأنَّ جماعةً من جواريك طلعتْ على السطح اليومَ، ودعونني إليهنَّ، وكلٌّ تقول: سهلي، وأنت لا تؤدِّبُهنَّ! قال عبد الله لأصحابه: اجتمعوا نصلِّ على سهل؛ فإنه سينتقلُ إلى رحمة الله تعالى؛ إذ ليس لي جوارٍ، ولكنَّ هذه التي رآها سهل كانت من حُورِ العين. فاجتمعوا، وهو تُوفّي إلى رحمة الله تعالى، وصلّوا عليه، ودفنوه.

نقل أنه سئل عنه: ماذا رأيتَ من العجائب؟ قال: رأيت راهبًا نحيفًا من المجاهدة مُتضرِّعًا مُضطربًا من خوف الله تعالى، مُنحنيًا من سطوات العقاب، قلت له: وما الطريقُ إلى الله تعالى؟ قال: إن عرفتَهُ علمتَ الطريقَ إليه، ثم قال: والذي يقضي منه العجب أنّي كيف أعبدُ من لا أعرفه؟ وأنت كيف تَعصي من تعرفه؟ مُراده: أنك تدّعي المعرفَة، وهي تقتضي الخوف، ولا أرى فيك أثرَ الخوف، والكفرُ يقتضي الجهلَ، وأنا ذبتُ من الخوف.

قال: دخلتُ الروم، وكنت أسير فيها وأدور، فالتقيتُ في مدينةٍ بجماعةٍ اجتمعوا في موضعٍ، ويريدون أن يصلبوا شخصًا في كلاليب ويعلّقونه فيها بكتفيه[٢]، ويقولون: إن قصّرنا ذرةً في تعذيبه، فليكن خصمُنا الصنمَ الكبير. ورأيتُ ذلك الشخص في تعبٍ عظيم، وعذابٍ أليم، وكان يصطبرُ، ولا يُظهرُ الجزعَ ولا يتأوّه، فتقرّبتُ منه، وسألتُهُ عن حاله، وعن غايةِ اصطباره، وعدم إظهاره الجزعَ مع سُوءِ حاله، وقبحِ مآله[٣]، فقال: إليك عنّي؛ فإنّي جنيتُ جنايةً عظيمةً، وسيِّئةً كبيرة. قلت: كيف ذلك؟ قال: أظنُّك مُسلمًا، وأحكي لك حكايتي، فاعلم أنَّ من ملّتنا أن لا يذكرَ أحدٌ الصنمَ الكبير إلاّ بعد أن يُطهِّرَ

---

(١) كذا في الأصول، وهو ليس سهل بن عبد الله التستري التي سترد ترجمته برقم (٢٨) الذي توفي سنة ٢٨٣هـ عن ٨٣ عامًا، وعبد الله بن المبارك توفي سنة ١٨١هـ.

(٢) في (ب): في كلابين، ويعلقونه فيهما بكتفيه.

(٣) في (ب): وقبح باله.

ظاهرَه وباطنه من كلِّ رجس ونجسٍ، ونذكرَه في غايةِ الخشوع والخضوع في موضعٍ نظيف، وأنا اليوم ذكرتُهُ في السوقِ خلفَ الميزان، وهذا جزاؤه. قال عبد الله: وكذا في شريعتنا مَنْ عرفَ الله تعالى حقَّ المعرفةِ لا يطيقُ أن يذكرَه، من عرفَ الله تعالى كَلَّ لسانه.

نقل أيضًا أنّه اتَّفقَ في الروم في بعض الغزوات، وحصلَتْ له محاربةٌ مع كافرٍ، فدخلَ وقتُ الصلاة، فاستمهلَ من الكافرِ ليُصلِّي، فأمهلَهُ الكافرُ، فصلّى عبد الله، ورجع إلى قتاله، ثم دخل وقتُ صلاة الكافر، فهو أيضًا استمهل عبد الله، فأمهله، ورجع الكافر ليُصلّي، ولمّا اشتغلَ الكافرُ بصلاته علمَ عبدُ الله أنّه يعبدُ الصنمَ، ويجوز قتالُه في هذه الحالة، والفرصةُ غنيمةٌ، فسلَّ سيفه وتبعَهُ ليجزَّ رقبته، وحين وصلَ إليه، ووقفَ على رأسه، سمعَ مُناديًا يقول: يا عبد الله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] فشرعَ عبدُ الله يبكي واقفًا هنالك، وامتنعَ من التعرّضِ له، رفع الكافرُ رأسَه من سجوده، ورأى عبدَ الله واقفًا على تلك الهيئة والحالة، استخبرَ منه، فقصَّ عليه القصة، وقال: عُوتبتُ لأجلك. فشهق الكافرُ وقال: يكونُ من ترك المروءة والفتوّة والعصيان فيمن يُعاتبُ أولياءه في بعض أعدائه، وقال: اعرضْ عليَّ الإيمان. فآمن، واجتهدَ في الدين، وحسنَتْ حالُه، وحصلَتْ آمالُه ببركة معاملته مع عبد الله عليه الرحمة.

نقل أنه قال: كنتُ في مكّة مُحرمًا بالحجِّ، وقصدتُ أن أدخلَ البيت، وتبعني شابٌّ حَسَنُ الهيئة، جميلُ الوجه، فلمّا دخلتُ التفتُّ ما رأيتُ الشاب، فحين خرجتُ رأيتُهُ ساقطًا على الأرض، مَغشيًّا عليه، واجتمعَ حوله جماعةٌ، فوقفتُ ساعةً، فأفاقَ، ورفعَ مُسبِّحَتَهُ، وقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله. قلت: كيف حالُكَ يا فلان؟ قال: اعلمْ أنّي رجلٌ من النصارى، وأردتُ أن أرى الكعبةَ، وأدخلَ فيها مع المسلمين بالتلبيس والحيلة، فلمّا وصلتُ إلى الباب سمعتُ هاتفًا يصيح ويقول: أتدخلُ بيتَ الحبيب، وفي قلبكَ معاداةُ الحبيب؟! فانفتح بابُ قلبي، وأسلمتُ وآمنت.

نقل أنّه كان يدورُ يومًا في سوق نيسابور، وكان يومًا شاتيًا باردًا، فالتقى بغلامٍ عليه قميصٌ واحدٌ، وهو يرجفُ من البرد، قال له: لِمَ لا تقولُ لسيِّدكَ أن يشتري لك جبَّةً؟ قال: ماذا أقولُ والسيِّدُ يراني ويسمعُ ويعلمُ أحوالي؟! فطاب وقتُ عبد الله من كلامِ الغلام، وشهقَ وخرَّ زائلَ العقل، ثم أفاق وقال: ينبغي أن تتعلَّمَ الطريقةَ من هذا الهندي.

نقل أنه أصابه مصيبةٌ، وكان الخلقُ يتردَّدون إليه للتعزية، وكان هناك مُشركٌ مجوسيٌّ هو أيضًا جاء إليه يعزّيه وقال: يا عبدَ الله، ينبغي لك أن تعملَ اليومَ ما أنت تعملُهُ بعد ثلاثةِ أيام. فبكى عبد الله، وقال: اسمعوا كلمةَ الحكمةِ من هذا الأجنبي.

أقول: لا غروَ في هذا وفي أمثاله، فإن عليًّا كرّم الله وجهه قال فيما نُقل عنه: انظرْ إلى ما قال، ولا تنظر إلى مَنْ قال، والله أعلم.

سُئل: أيُّ خصلةٍ في الإنسان أنفع؟ قال: العقلُ الوافر؛ أي الكثير الكامل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: حسنُ الأدب. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ مُشفقٌ يُشاورُهُ فيما يسنح له من الأمور. قيل: إن لم يكن؟ قال: السكوت الدائم. قيل: إن لم يكن؟ قال: الموت في الحال.

ومن كلامه:

من استخفّ أدبًا من الآداب حُرم سُنَّةً، ومن استهان بسُنّةٍ ابتُلي بترك فريضةٍ، ومن استخفَّ فريضةً حُرم من المعرفة، والبعدُ من المعرفة شؤم.

قلوب الطالبين للحقِّ لا تسكنُ أبدًا؛ بل تكون طالبةً لمقامها عند مولاها.

الناسُ بقليلٍ من الأدب أحوجُ بكثيرِ العمل.

نحن نطلبُ الأدب اليوم، وقد ذهب المؤدِّبون.

كلٌّ من الناس قال في الأدبِ شيئًا، وهو عندي معرفةُ النفس.

السخاوةُ بما في أيدي الناس أفضلُ من بذل ما في يدك.

ردُّ درهمٍ من الشُّبهة إلى صاحبها خيرٌ من التصدّقِ بمئةِ درهمٍ.

مَنْ قَبِلَ درهمًا من الحرام لا يكونُ متوكِّلاً.

ليس التوكّلُ أن تراه من نفسك؛ بلِ التوكُّلُ ما يعلمُ الله تعالى منك توكّلاً.

الكسبُ لا يمنعُ من التفويض والتوكُّلِ.

المروءةُ في الرضا أحسنُ من المروءةِ في العطاء.

الزهد هو الأمن في وعد الله.

من لم يذقْ طعمَ العبودية فلا ذوقَ له.

من له أهلٌ وأولاد، وهو يُربِّيهم بالخيرِ والصلاح، ويقومُ بالليل، فإن رأى واحدًا منهم قد انكشفَ فغطّاه، فذلك القدرُ من العمل أفضلُ من غزونا.

مَنْ عظم قدرُهُ عند الناس ينبغي أن يحقِّرَ نفسَه.

قيل له: ما داءُ القلب؟ قال: البعد من الناس، والتكبُّرُ على الأغنياء، والتواضعُ للفقراء.

من التواضعِ التكبّرُ على من فوقك في الدنيا، والتواضع لمن دونك فيها.

الرجاءُ يحصل من الخوف، والخوفُ من صدق الأعمال، وصدقُ الأعمال من تصديقِ القلب.

كلُّ رجاءٍ لا يكون أصلُه الخوف يَزولُ عن قريب ويسكن.

سببُ انبعاثِ الخوفِ وقرارِهِ في القلب دوامُ المراقبةِ في السرِّ والعلن.

نقل أنه جرى في مجلسه غيبةٌ لبعضِ الناس، قال: إن أردتُ اغتيابَ الناسِ، فأبي وأمي أوَلى بذلكم، فإنهما أوْلى بحَسناتي من غيرِهما.

نقل أنه قال له شخصٌ: وصّني. قال: راقبِ الله تعالى. قال: وكيف أراقبُهُ؟ قال: كنْ في جميع الأحوال كأنك تشاهدُ أنه يراك.

نقل أنه في حال حياته صرفَ جميعَ أمواله على الفقراء، وحين حضرتْهُ الوفاةُ، قال له شخص من المُريدين: تُغمضُ عينيك من الدنيا، ولك بنتان، وما تركتَ لهما شيئًا؟ فقال عبد الله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ففي وقتِ النزعِ، فتحَ العين، وكان يضحكُ ويقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

نقل أنّ شخصًا من الصالحين رأى سفيان الثوري بعد موتِهِ في المنام، وسألَهُ عن عبد الله بن المبارك، قال سُفيان: وهو ممّن يُؤذنُ له إلى ربِّه كلَّ يوم مرتين.

رزقنا الله تعالى السُّلوكَ في طريقهم، ونوّرنا الله تعالى بأنوار كشفهم وتحقيقهم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *